المدينة اليمنية القديمة

يوسف محمد عبدالله

تمهيد:

لا تزال معارفنا عن المدينة اليمنية التاريخية قليلة، ولا تكفي الباحث إن هو أراد التحدث عنها بدقة وإحاطة، لا سيما إذا كان المتحدث عنها هو كاتب هذه السطور.

فهو وإن كان يهوى الحديث عن مدن اليمن القديمة ويطالع ما جدّ من دراسات حولها، إلا انه في حقيقة الأمر ليس بالمتخصص بهذا الشأن وليس بأفضل منْ يكتب في هذا الموضوع.

وينبغي على القارىء المتخصص أن يضع نُصب عينيه هذه الملاحظة عندما ينظر في الصفحات التالية، التي تهدف في الدرجة الأولى إلى وضع تصور أولي ليكون بمثابة مدخل عام لدراسة المدينة القديمة موقعاً وخطة ووظيفة، استناداً إلى المادة الأثرية والتاريخية المتوافرة، وانطلاقاً من رؤية تاريخية خاصة.

ومن الضروري أن يقرر المرء منذ البداية، أن الأبحاث الأثرية والتاريخية والاجتماعية في هذا المجال لا تزال في أول أمرها، بل تسير ببطء، وأبرز الجهود التي بذلت في هذا السبيل هي أبحاث البعثة الأميركية لدراسة الإنسان،[1]

(١) الدراسات التي صدرت عن تنقيبات تلك البعثة في تمنع وهجر بن حميد وغيره.

ودراسات فون فيسمن، وغروهمن، والبعثة الفرنسية في شبوة، ورسالة الشيبة في أسماء الأماكن اليمنية القديمة.[٢] ومعظم هذه الأبحاث لا تعنى مباشرة بتاريخ المدينة اليمنية القديمة وموقعها وخطتها وفن عمارتها، وإنما تلمس هذه الأمور لمساً خفيفاً لدى الحديث عن الآثار والنقوش القديمة في اليمن، وقد تعرض لموقع ما وعوامل ازدهاره ومعالم آثاره، ولكن ينقص ذلك كله تنقيب علمي وأبحاث ميدانية مكثفة وفي مواقع متفرقة، وحينها قد تتكامل الشواهد والقرائن، ويسهل وضع تصور مفصل ومزود بالخطط والصور والرسوم ليكون أساساً يعتمد عليه لدى الحديث عن المدينة اليمنية القديمة، وليكون مرجعاً مفيداً لمن شاء المقارنة بين الحاضر والماضي، وتذكرة للعاملين في برنامج تخطيط المدن بضرورة استلهام الماضي في عملهم، حتى يؤسس بنيان الحاضر على أُسس من هدي الماضي، ويكون استمراراً لنهج السلف وإبداعه وتعزيزاً للذاتية الثقافية، في زمن قد يغفل المرء فيه عن الكثير المفيد ويتوه في غمرة أحداثه ونشوة عمرانه.

عوامل نشوء المدن اليمنية القديمة:

يعتقد ان المدن اليمنية القديمة كانت كغيرها من مدن الشرق القديم، نقاط انطلاق هامة، في سلسلة التحولات الحضارية الأولى التي شهدتها بقاع مهد الحضارات، فاليمن، كما تومىء كثير من الشواهد الأثرية، ربما كانت إحدى بقاع مهد الحضارات تلك، وموقعها في جنوب غربي آسيا وضمن جزيرة العرب التي قامت، في أطرافها الشمالية، حضارات، بين النهرين وبلاد الشام ووادي النيل يؤهلها لتكون ضمن تلك البقاع التي شهدت تلك التطورات الرائدة في تاريخ البشرية، وينبغي أن تكون حواضر تلك البقاع قد أسهمت في صياغة معالم تلك الحضارات الراقية، ولعبت دوراً نشطاً في دفع حركة مجتمعها إلى الأمام، وإبداع الأفكار فيها والقيم الجديدة وتوصيلها وتبادلها منذ فجر التاريخ،

(٢) فون فيسمن في كتابه «في الجغرافيا التاريخية لليمن»، ڤينا ١٩٦٤ م (بالألمانية) ـ غروهمن في كتابه «بلاد العرب»، دراسة للتاريخ الحضاري.. ميونيخ ١٩٦٣ (بالألمانية)، وعبدالله الشيبة في رسالته عن أسماء الأماكن اليمنية في النقوش اليمنية القديمة، صدرت بالألمانية ماربورغ ١٩٨٢.

ولا سيما منذ حوالي مطلع الألف الأول قبل الميلاد، فمعلوماتنا عن حضارة اليمن القديم تزداد باستمرار وتدلنا بوضوح على دور أرض اليمن بحكم موقعها الوسط في إنعاش الطرق التجارية وازدهارها في الشرق القديم، وكانت مدنها العديدة الواقعة على طرق التجارة تلك مراكز نشطة في عملية الوصال المستديم بين بلدان حوض المحيط الهندي، وبلدان حوض البحر المتوسط عبر سلسلة من مدن القوافل المشهورة مثل شبوة ومأرب ونجران، وكانت نجران هذه ملتقى طريقين تجاريين هامين أحدهما يصلها بشرق الجزيرة والآخر يصلها بدمشق أو غزة عبر مدن يثرب وددان والبتراء.

ولم تكن وظيفة تلك المدن تقتصر على توفير خدمات القوافل وتسهيل نقل السلع النادرة مثل اللُّبان والطيوب والأحجار الكريمة، وإنما كانت وظيفتها تمتد لتبادل المعارف والخبرات والتصورات المتعلقة بأمور الحياة وشؤونها الثقافية المختلفة.

ويرجّح أن معظم المدن اليمنية القديمة كانت قد نشأت في أول الأمر على الوديان. وغالباً ما كانت تقوم على مرتفع في وسط الوادي أو على إحدى ضفتيه، مثل مدينة مأرب وبراقش ونشق وتمنع، ثم بدأت تظهر المدن تدريجياً على الهضاب العالية وفي سفوح الجبال أيضاً.

وإذا ما ألقى المرء نظرة فاحصة على الخارطة التاريخية لليمن القديم يجد أن معظم مراكز الحضارة اليمنية القديمة كانت قد تركزت في الوديان الشرقية.

وذلك في تلك المناطق الخصبة حيث تلتقي سفوح الجبال بمشارف فلاة اليمن (الربع الخالي) وخاصة حول ذلك «الخليج الصحراوي» الداخل في مرتفعات اليمن الشرقية، والذي عُرف في الموروث بمفازة صيهد ويُعرف اليوم برملة السبعتين.

وتدخل هذه المنطقة ضمن المناطق الجافة في اليمن والتي يقل فيها المطر عادة أو يأتي دون انتظام ويتراوح معدل نزول المطر بين (٥٠ - ١٠٠ مم).

بينما يصل الحد الأقصى لمعدلات نزول المطر عموماً في اليمن حوالي

١٨٠٠ مم، إلا أن وديانها تستفيد من السيول التي تتجمع في المساقط الشرقية للنطاق الجبلي الضخم الذي يمتد من الجنوب إلى الشمال مكوناً الهضبة اليمنية، والذي يمتد عبره خط تقسيم المياه الذي يفصل بين المساقط الشرقية والغربية.

وقد اكتشف الإنسان في اليمن منذ القديم غزارة تلك السيول وأهميتها فهي تأتي موسمياً، مما يتيح له زراعة الأرض بعد أن تغمر، وهي تخصب التربة بالغرين الذي تحمله معها، على أن أهم ما اهتدى إليه الإنسان في اليمن قديماً هو ضرورة الحفاظ على التربة التي تجرفها السيول، وضرورة السيطرة على كمية أكبر من المياه، فكان أن فكّر في بناء الحواجز والسدود التي تطورت لتشكل بعد ذلك شبكة منظمة من وسائل الري، وهي نقلة هامة في توفير أُسس المعيشة لتجمعات حضرية راقية.

وكان من أسباب قيام المدن اليمنية على ضفاف الوديان الشرقية أيضاً هو مرور الطريق التجاري البري المعروف بطريق اللُّبان عبرها، إذ أن أنسب طريق للقوافل هو ذلك الذي يمر على موارد المياه، وخاصة حيث تسيل الوديان الهابطة من الجبال الشرقية باتجاه الصحراء، كما أن هذه المناطق الصحراوية السهلة ذات مناخ جاف صحي يخفف من انتشار الأوبئة التي تعهد في المناطق الساحلية الرطبة، وهكذا قامت على وادي أذنة مدينة مأرب، وعلى وادي الجوف مدن مثل قرناو وكمنا ونشق ونشان، وعلى وادي بيحان مدينة تمنع وعلى وادي عرمة ـ العطف مدينة شبوة، وعلى وادي الدّواسر مدينة «قرية» وغيرها.

وكانت لهذه المدن وظيفتان رئيسيتان: **أولاً** هي عواصم أو حواضر رئيسية لكيانات سياسية كبيرة أو صغيرة. فمثلاً كانت مأرب عاصمة لدولة سبأ، وكانت شبوة عاصمة لدولة حضرموت، وكانت قرناو عاصمة لدولة معين. **ثانياً**: هي محطات أساسية على طريق التجارة، تستلم ضرائب وتقدم الحماية والخدمات للقوافل وتمتلك جزءً من التجارة، ولهذا فيمكن تشبيهها من هذه الناحية بما عرف في جزيرة العرب بعد ذلك بدول مدن القوافل مثل البتراء (انتهت ١٠٦ م) وتدمر (٢٧٣ م) والحضر في جزيرة العراق (٢٤٠ م).

وإذا كانت المدن اليمنية القديمة تختلف عن هذه لكونها لم تكن دولاً حاجزة أيضاً إلا أنها تضارعها في كونها لعبت دوراً أساسياً في حركة الوصال الدائب بين حياة البداوة وحياة الحضارة من ناحية، وبينها بين بلدان حضارات العالم القديم من ناحية أخرى.

وإذا كانت مدن الوديان الشرقية في المرحلة القديمة هي التي ازدهرت أكثر من غيرها من مدن اليمن فإن مدناً أخرى ظهرت أو ازدهرت في المرتفعات في الألف الأول قبل الميلاد، ولا سيما في القيعان الخصبة التي تتخلل الهضبة اليمنية. وغالباً ما تكون تلك المدن على سفح جبل عالٍ تستند إليه وتحتمي بمصنعته (حِصْنِه)، وعلى الرغم من قلة الأمطار التي تنزل على هذه القيعان إلا أنها أغزرُ من تلك التي تسقط في منطقة الوديان الشرقية، كما انها تساعد على تكوين رواسب خصبة في تلك القيعان، وبذلك يمكن مزاولة زراعة كثيفة ومتنوعة فيها، إضافة إلى كونها تتميز بموقعها الجميل وطقسها الصحي المعتدل.

وعادة ما تكون مدن هذه القيعان في الأصل أسواقاً موسمية للقرى المحيطة بها، أو محطات على طرق التجارة الجبلية، وقد ازدهرت الطرق الجبلية في اليمن في فترات بعد الميلاد، وخاصة في القرون القليلة التي سبقت الاسلام، ويمكن أن يذكر بهذا الصدد طريق التجارة البري عبر ما عُرف بدرب أسعد الكامل نسبة إلى الملك الحميري أبي كَرِب أسعد (عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلاديين)، ويُقال إنه كان قد هيأ طريقاً رصفه بالحجارة بين ظفار عاصمة حمير والطائف، ويذكر الأخباريون أيضاً طريق أصحاب الفيل.

وأشهر من ذلك رحلة الشتاء والصيف والذي كان يمتد من عدن إلى بلاد الشام، وكانت دورة أسواق العرب تشغل معظم هذا الطريق، حيث كانت الدورة تمتد من مكة إلى دومة الجندل ومنها إلى هجر وصحار والشحر وعدن وصنعاء، ثم مرة أخرى إلى عكاظ قرب مكة، ويصف الحسن بن أحمد الهمداني (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) في كتابه **صفة جزيرة العرب** عدداً من الطرق الجبلية عبر الهضبة اليمنية. ولكن أشهرها هو درب الحجيج الذي يمتد من عدن عبر صنعاء إلى مكة، فهو يبدأ من عدن إلى الحج ثم **ثعوبة** ثم

ورزان ثم الجند ثم السحول ثم حقل قتاب ثم ذمار ثم خدار ثم صنعاء.[٣]

ومن صنعاء إلى ريدة ثم اثافت ثم خيوان ثم العمشية ثم صعدة، ثم العرقة ثم ارينب ثم سروم الفيض ثم الثجة ثم كتنة ويستمر الطريق عبر تثليث وبيشة وتبالة إلى مكة.[٤]

ويذكر الهمداني في كتاب الصفة محجات عديدة سواء من عدن إلى مكة أو من دمشق إلى مكة. ويبدو أن طريق رحلة الشتاء والصيف قبل الإسلام لم يكن يختلف كثيراً عما كان عليه الأمر في عصر الهمداني، فإذا بدأ الطريق من عدن فإن محطاته الرئيسية في الغالب كانت الجند وذمار وصنعاء وصعدة وجرش والطائف ومكة ويثرب وتبوك ومعان وبصرى ودمشق، ولا شك أن هناك مسالك ودروباً أخرى، كما أن بين هذه المحطات الرئيسية والثانوية سلسلة من المدن التي نشأت في القيعان الخصبة وفي سفوح جبالها، وازدهرت؛ ولكن نتيجة كونها إما محطة أو سوقاً أو عاصمة، ومثال هذه المدن صنعاء في قاع صنعاء على سفح جبل نقم، وظفار عاصمة دولة حمير في قاع الحقل، بسند جبل ريدان والجند على مقربة من جبل صبر، وصعدة في حقل صعدة. وهناك مدن يمنية أخرى كانت تقع على سفوح الجبال في الهضبة مثل «شبام سخيم» بسفح جبل ذي مرمر، وشبام كوكبان «شبام أقيان» على سفح جبل كوكبان، ووعلان ردمان على سفح جبل شحرار، ونعض على سفح جبل كَفِن، وناعط بسند جبل ثنين وإتوه بسفح جبل ريام. ومن مدن الهضبة اليمنية المشهورة أيضاً مدينة جبأ وهي مدينة المعافر، ومدينة السواء التي ذُكرت في المصادر الكلاسيكية، وجيشان والصهيب ومنكث ورداع وريدة وعمران وأكانط وغيرها.

ومنذ العصور القديمة نشأت مدن أيضاً في الوديان الجنوبية والغربية، إلا ان ازدهار معظم المدن على الوديان الغربية بلغ أوجه في العهود الإسلامية. على ان بعض المدن الساحلية التي لعبت دوراً هاماً كموانىء على البحر الأحمر أو البحر

(٣) صفة جزيرة العرب، دار اليمامة، ص ٣٤٤.
(٤) المصدر نفسه، ص (٣٣٩ - ٣٤٠).

العربي ازدهرت قبل الإسلام بزمان طويل مثل قنا وعدن والمخا.

ويعتبر وادي حضرموت الذي يشق هضبة الجول والذي يصب في البحر العربي من أهم الوديان اليمنية التي قامت عليه أو ازدهرت فيه المدن مثل شبام وسيئون وتريم وهي من مدن وادي حضرموت القديمة التي تذكرها النقوش، ثم وادي ميفعة الذي ازدهر في مصبه ميناء قنا الشهير، ووادي بنا حيث قام تجمع حمير، ووادي تبن الذي يقع ميناء عدن في مصبه (الدلتا).

أما الوديان الغربية التي تنحدر من الهضبة اليمنية وتسيل في سهل تهامة، وباتجاه البحر الأحمر فكثيرة وعلى هذه الوديان قامت وازدهرت مدن يمنية كثيرة قبل الإسلام وبعده، إما كمرافىء أو مراكز أو قرى صيد، ورغم ان جو تهامة حار ومشبع بالرطوبة ولا تهطل فيها أمطار كافية إلا ان سهلها الممتد حوالي ٤٠ ـ ٦٠ كم بين الساحل والجبل تخترقه الوديان الخصبة التي تجري فيها السهول موسمياً وتكتنف هذه الوديان سهول شاسعة تصلح للزراعة الكثيفة أو المراعي وتربية المواشي.[٥] فمن مدن تهامة الساحلية حلي وعثر والشرجة وغلافقة والمخاء، ومن المدن التهامية هجر على وادي ضمد والكدراء على وادي سهام والمعفر على وادي ذؤال (وقريبة منه حديثاً القحمة وبيت الفقيه) وزبيد على وادي زبيد والمهجم على وادي سردرد وموزع على وادي موزع و ملحة على وادي مور وغيرها.[٦]

وقد استحدث في اليمن أو ازدهر بعد ان كانت مغمورة عدد من تلك المدن في العهود الإسلامية، ولكنها لم تكن في بقعة الضوء بالنسبة لغيرها من الأمصار الإسلامية، كالمدينة ودمشق وبغداد، فهي مراكز أساسية للدولة الجديدة، ومع ذلك فقدكانت في اليمن حينئذ مراكز علمية هامة تقوم بتعليم الناس الدين الجديد وثقافتهم فيه، كما اكتسبت بعض المدن القديمة والعهد

(٥) المفيد في تاريخ صنعاء وزبيد لعمارة بن علي اليمني، تحقيق محمد علي الأكوع ـ ط ٢ (١٩٧٦ م) (ص ٧٦ ـ ٨٠).

(٦) صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد الهمداني، تحقيق محمد علي الأكوع، طبعة دار اليمامة (١٩٧٤) ص ٧٥.

الجديد ثوباً إسلامياً جديداً زاهياً، وخير مثال على ذلك مدينة صنعاء المشهورة قديماً ثم صارت في العهود الإسلامية أيضاً وجهة كل عالِم وتاجر.

ويذكر آدم ميتز[٧] في كتابه (الحضارة الإسلامية) في القرن الرابع الهجري ان العلامة التي تعرف بها المدينة الإسلامية هي أن يكون لها منبر. وقد شددت الحنفية بنوعٍ خاص في انه لا تقام الجمعة إلا في الأمصار الجامعة التي تقام فيها الحدود. كما يذكر عمارة[٨] ان الحسين بن سلامة (توفي في الربع الأول من القرن الخامس الهجري) أنشأ الجوامع الكبار والمنارات الطوال من حضرموت إلى مكة.

ثم يذكر الأماكن التي أنشأ فيها تلك الجوامع وأصلحها إلى حد انه أقام في كل مسافة مرحلة جامعاً، فمثلاً ما بين ذمار وصنعاء مسافة خمسة أيام بنى خمسة جوامع، ومن صنعاء إلى صعدة عشرة أيام بنى في كل مرحلة من ذلك جامعاً وهكذا، وقد ذكر عمارة أسماء عدد من المدن التي بُني فيها جامع ولكنه أغفلَ ذكر مدن كثيرة أخرى. وإذا ما أخذ المرء بعلامة المدينة عند آدم ميتز أي ان المدينة هي تلك التي يكون فيها منبر (أي مسجد جامع)، فانه ربما كان من المفيد لو تتبع المرء الطريق ما بين حضرموت ومكة عبر عدن، حسب رواية عمارة التي يقول فيها ان الحسن بن سلامة بنى بين كل مرحلة ومرحلة جامعاً، حتى يعرف عدد المدن التي كان يمر بها الطريق، وإذا ما اعتمد المرء تقدير عمارة فان الحسن ابن سلامة يكون قد بنى أكثر من خمسين جامعاً ما بين حضرموت ومكة غير عدن وصنعاء (ناهيك الجوامع الأخرى التي بناها عبر طريق تهامة أي انه كان يقع على هذه الطريق أكثر من خمسين مدينة، وهو عدد كبير إذا ما وضع المرء في حسبانه بقية المدن اليمنية الأخرى التي تقع خارج هذا الطريق وهي كثيرة. مع ذلك، فان هذه الحقيقة تؤكد ما أومأ إليه سلفاً من دور الطريق التجاري، أو

---

(٧) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، المجلد الثاني ١٩٦٧ م، ص ٢٦٨.

(٨) مرجع سابق، ص ٧١ ـ ٨٠.

درب الحجيج في نشأة المدن اليمنية وازدهارها سواء كان طريق التجارة الصحراوي أو الطريق الجبلي أو الطريق الساحلي.

ومن الملاحظ أن نشوء مراكز الحضارة الراقية لا يقتضي بالضرورة أن تكون مواقعها في مناطق هي الأنسب مناخياً، وتاريخ البشرية يؤكد مثل هذه الظاهرة، فلربما كانت عوامل النشوء الأخرى غير المناخ على أهميته هي الحاسمة، مثل عامل الأمان والحماية أو عامل النشاط التجاري، ولكن إذا ما أصاب حضارة ما تدهور وتفتت فإن مراكز الحضارة والقوة والثقل السياسي، قد تغادر موطنها وتنتقل إلى مناطق أخرى أكثر ملاءمة، حيث تتوافر لها فرص أفضل للانتعاش.

وقد تأكد ذلك في اليمن حيث انتقلت مراكز الحضارة والثقل السياسي من منطقة الوديان الشرقية إبان الفترة السبئية إلى الهضاب الوسطى الداخلية في الفترة الحميرية والعهود الإسلامية، على أنه من الجدير بالذكر أن ذلك الانتقال إلى الهضبة لم يمتد دائماً إلى المناطق الأصلح مناخاً كمنطقة المنحدرات الغربية حيث تكثر الأمطار، وتتكثف فيها زراعة المدرجات[٩] أكثر من غيرها..

أنماط المدينة اليمنية التاريخية:

ويمكن للمرء أن يصنف المدن اليمنية التاريخية وفق اعتبارات عدة سياسية أو دينية أو جغرافية وغير ذلك ولكن سنحاول هنا ان نصنفها إجمالاً وفق الوظيفة التي كانت تميزها. وتصنيف مثل هذا لا يمكن أن يكون قاطعاً مانعاً، إذ لا بد أن يكون فيه أكثر من التداخل والترادف، وفي مثل هذه الحالات تغلب الصبغة الغالبة، كما ان هذا التصنيف يمزج بين العصور التاريخية القديمة والإسلامية على اعتبار ان المدينة القديمة إجمالاً لم تندثر كلها لتحل مدن جديدة في العصر الإسلامي، وإنما غلبت على كثير منها سمة الاستمرارية حتى وإن اكتست ثوباً

(٩) أنظر مقال فون فيسمن حول مدينة صنعاء في كتاب «دراسات جغرافية المانية حول الشرق الأوسط» تحقيق يوجن فيرت، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت (١٩٨٣ م) ص ٥٢ (بالعربية).

جديداً، وهناك أمثلة عديدة على مدن قديمة استمرت عامرة بالسكان في موقعها القديم نفسه ودون انقطاع وربما لا تزال تحمل الاسم نفسه الى اليوم وتحتفظ بملامح حيّة من هويتها القديمة.

أولاً: المدينة عاصمة الدولة:

وتقابل المصر في العصر الإسلامي. وهي الحاضرة التي تكون مركز الدولة ومقر سلطانها، ويقيم فيها الحاكم، مثل مأرب عاصمة دولة سبأ وظفار عاصمة (دولة حِمْيَر) وصنعاء.

ثانياً: المدينة عاصمة الإقليم و المخلاف:

يكون فيها مقر الكبير أو القيل مثل شبام اقيان (شبام كوكبان) محل أحد كبراء سبأ من ذي مرثد، ووعلان «المعسال» مقر قيل ردمان وذي خولان وشبام سخيم «شبام الغراس» مدينة اقيال بني سخيم أو نعض (على سفح جبل كنن) مقر اقيال مخلاف ذي جرة وجبأ كورة مخلاف المعافر.

ثالثا: المدينة الدينية:

وهي المكان الآمن ومتنسك الناس ومحل احترامهم وقريب من ذلك «الهجرة» أو «الحوطة» مثل مدينة الحضر في جزيرة العراق (مدينة الشمس) أو مكة في الحجاز، وفي اليمن كانت براقش العاصمة الدينية للمعينيين.

ويذكر عمارة أنه لم يزل الناس يزورون مسجد مدينة الجند في كل سنة وفي أول رجب حتى كثر ذلك وصار منسكاً للعامة. و(الهجرة) هي المدينة أو (القرية) التي يصطلح أن تكون حمى وملاذاً بعيدة عن خلافات القبائل، ويجري فيها حل الخصومات، والإصلاح بين الناس، وهي فعلاً كالحرم الآمن ومركز علم يفد إليه الطلاب مثل: هجرة دبر في سنحان وهجرة الكبس في خولان. وهجرة ظفار أبين، وهجرة حوث وغيرها كثير.

رابعاً: المدينة الثقافية:

وهي المدينة التي تتيسر فيها سبل العلم وتصبح مركزاً علمياً يفد إليه العلماء والمتعلمون، ويغلب عليها النشاط الثقافي والتعليمي وتدور الحياة العامة والخاصة اجمالاً حول ذلك مثل مدينة زبيد ومدينة تريم وغيرها، وإن كانت تكتسب أحياناً وظائف أخرى دينية واجتماعية وسياسية إلا ان صبغتها الثقافية تبقى هي الطاغية.

خامساً: المدينة السوق:

وهي كثيرة وتقوم هذه المدينة في الأصل على التجارة، فهي تبدأ في الغالب على شكل سوق موسمي، ثم تتطور لتصبح السوق الرئيسية للمناطق المجاورة، ومما يساعد على ازدهار مدن السوق وقوعها على طرق رئيسية ينزلها المسافرون ويتزودون بحاجاتهم فيها وهم في طريقهم إلى غاياتهم، ومن هذه المدن ما يدل اسمها على مثل هذه الوظيفة كمدينة الخميس أي المكان الذي كان يقام فيها سوق الخميس، ومن المدن التي غلب عليها طابع السوق قديماً شبوة وتمنع والسوا. ومن المدن الأسواق الشهيرة الشحر وعدن وصنعاء، والمدن الثلاث هذه كانت ضمن دورة أسواق العرب المشهورة. ومن هذه المدن في العصور الإسلامية على سبيل المثال جيشان واثافت، وفي العصر الحديث بيت الفقيه والكدحة، ومن هذه المدن اليوم القاعدة والراهدة والنَّشَمة وغيرها.

سادساً: المدينة الميناء:

وكانت (**قنأ**) على ساحل البحر العربي وفي مصب وادي ميفعة (بير علي) أشهر مدينة ساحلية في اليمن تقوم بدور المرفأ لتجميع البضائع الآتية من حوض المحيط الهندي، لتصديرها عبر طرق التجارة البرية في جزيرة العرب. ثم عدن وقد بقيت تلعب هذا الدور إلى اليوم، وإن كانت تتألق في فترات وتضعف في فترات أخرى.. ومن هذه الموانىء **المخاء** وقد عُرف في الإسلام وذُكر في المصادر الكلاسيكية، فلربما كانت «موزا» هي مدينة المخاء نفسها التي

ذكرتها النقوش اليمنية القديمة باسم (مخون).

واشتهرت المخاء أيضاً في العصور الحديثة حين كانت ميناء البن المخاوي الشهير خاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، ومن المدن الموانىء في العهود الإسلامية أو في الحديثة حلي وجازان وغلافقة والحديدة والشحر والمُكلاّ وغيرها..

سابعاً: المدينة الصناعية:

اشتهرت بعض المدن اليمنية ببعض الأعمال الحرفية بجانب وظائفها الأخرى، مثل صعدة التي عُرفت بالصناعات الحديدية والجلدية وصنعاء بمسكوكاتها الفضية **والذهبية** والخناجر، وقد تحدث الهمداني في **الجوهرتين العتيقتين**[١٠] عن صنعة النقد في كل من صنعاء وصعدة بالتفصيل، واشتهرت بيت الفقيه بالمنسوجات وحيس بصنع الأدوات الفخارية.

ولا ريب أنه من المتعذر رسم الخط الفاصل بين هذه الأنماط المتعددة من المدن كما سلف القول، فقد يجد المرء مدناً يمنية متعددة الوظائف وتكون مثلاً المدينة السياسية والثقافية والتجارية في آنٍ واحد، وهذه عادة من خصائص المدن الرئيسية مثل مأرب قديماً وصنعاء حديثاً وخاصة في فترات الازدهار.

وينطبق الأمر نفسه على كل من مدن صعدة والجند وتعز وجبلة وغيرها. إن المدن بوجه عام تتشابه في وظائفها وأنماطها فالمدينة اليمنية القديمة (هجر) قد لا تختلف في جوهرها عن الاوبيدوم أو المتروبوليس في العهود الكلاسيكية، أو عن المصر والقصبة في العهود الإسلامية، أو عن العاصمة والمركز في العصور الحديثة، ولكن الأطر الطبيعية والبشرية والاجتماعية والعوامل التاريخية لا بد ان تؤثر في نشوء المدن وازدهارها.

ولما كانت تلك الأطر والعوامل متباينة النوع ومتفاوتة الأثر، فان كل مدينة أو مدن كل حضارة أو قطر تتسم بخصوصيات محلية تميزها عن غيرها، كما ان

---

(١٠) راجع كتاب الجوهرتين العتيقتين للهمداني تحقيق (تول)، طبعة مشروع الكتاب لوزارة الاعلام والثقافة ـ صنعاء (١٩٨٥).

مدى استجابة كل مدينة للتفاعل والتطور يخضع للظروف والعوامل المحيطة بها، وبالتالي ينعكس على مستوى أدائها للدور الوظيفي الذي تهيأت له، مما يكسبها سمات معينة تنفرد بها عن غيرها من المدن سلباً وإيجاباً، وينطبق هذا القول بطبيعة الحال على المدينة اليمنية القديمة والإسلامية والحديثة.

ولهذا يمكن القول إن من سمات الهجر «المدينة اليمنية القديمة» انها كانت رائدة على اعتبار الاعتقاد السائد ان اليمن كانت من بقاع مهد الحضارات، وكانت كغيرها من مدن الشرق القديم مركز انطلاق للنشاطات البشرية من ثقافة وزراعة وتجارة ودولة، وأسهمَت مع غيرها في صياغة معالم الحضارات الراقية الأولى، ثم لعبت دوراً هاماً في عملية الوصال المستديم بين حياتي البداوة والحضارة في جزيرة العرب من ناحية، وبينها وبين بلدان العالم القديم من ناحية أخرى، ومثال ذلك هجر قنا وهجر شبوة وهجر مأرب وهجر قرناو، وقد تضمنت دراسة أحد الباحثين إحصاءً لأسماء الأماكن اليمنية التي حملت قديماً نعت (هجر) فوجدها «مائة وست هجر» وتمكن الباحث أيضاً من تحديد مواضع ٧٣ منها.[١١]

ويستفاد من هذا الإحصاء ان (هجر) أي المدينة وفق دلالتها القديمة، تشمل أنماطاً عدة من المستقرات مثل العاصمة والمركز الاداري أي المدينة الرئيسية والمدينة الثانوية، وقد تمتد الصفة إلى مدن أصغر من ذلك، وإلا لما كان في اليمن القديم مثل هذا العدد الكبير من المدن، وهو إحصاء بطبيعة الحال لا يشمل كل المدن اليمنية القديمة وإنما ما تم اكتشافه حتى الآن.

وعندما دخل الإسلام اليمن اكتست المدينة اليمنية القديمة والمستحدثة كما سلف القول، ملامح جديدة وثوباً إسلامياً قشيباً، كما هي الحال في المدن الأخرى خارج اليمن كيثرب «المدينة» ودار الهجرة.. فقد كانت الهجرة النبوية من مكة إلى يثرب نقلة حضارية وحضرية، ولم تكن مجرد انتقال من مكانٍ إلى آخر، وإنما انتقال المؤمن من بلد الفتنة آنذاك على دينه إلى حيث يأمن على دينه،

(١١) راجع رسالة د. عبدالله الشيبة، ماربوج (١٩٨٢ م) (بالألمانية).

وانتقال المسلم من دار الشرك والجاهلية آنذاك إلى دار الإيمان والهدى. بل ان من معاني الهجرة في اللغة هو ان يخرج البدوي من باديته إلى المدن، والهجرة قد تحمل معه دلالات معنى التحضر والاستقرار، ومن قبيل التحضر ان يتحول المرء من حياة دنيا المعاش إلى نحلة أرقى في سبيل تأمين موارد الكفاية له وحسن الاستيطان، وقد يكون لهذا السبب سميت يثرب (دار الهجرة) بالمدينة.

وقد أثرت المعطيات الإسلامية الجديدة وخاصة التقاليد الدينية على بيئة المدينة اليمنية القديمة، ووسمت معالمها بالروح الجديدة وضمنت الشروط الأساسية لإقامة مجتمع حضري بكل ما فيه من مقومات، وتَوافَرت لبعض المدن وخاصة الرئيسية منها سمات بارزة مثل الجامع والمدرسة والحمّام بخصائصها الفنية الإسلامية، وكذلك دخول بعض العناصر المعمارية التي انتشرت آنذاك في شتى بقاع العالم الإسلامي، ورغم ان مدن اليمن كانت من مدن الأطراف، ولم تكن كمدن بغداد ودمشق والكوفة والبصرة، إلا انها كانت في بداية الأمر من المنطلقات الرئيسية التي مهدت لصياغة معالم المدينة الإسلامية الجديدة، فقد انطلق أهل اليمن من مدنهم القديمة البالية ليسهموا في الفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة المحمدية، وكانوا في طليعة الجيوش الإسلامية الفاتحة، وألفوا جزءاً كبيراً منها، وكان لهم الدور الأكبر في وضع خطط المراكز الحضرية الإسلامية الأولى في بلاد الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا والأندلس، ومن تلك المراكز والأمصار التي استقروا فيها وأسهموا في تخطيطها وبنائها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان، وقد حملت تلك المدن ولا شك نفساً يمنياً وكانت امتداداً للتجربة اليمنية وللهجرة القديمة، علماً بأن ذلك كان قد تم ضمن نطاق حضارة الخلافة الإسلامية وأُطرها، وظروفها الجديدة.. ولذلك فان المحصلة قد لا تعكس بوضوح تلك العناصر المعمارية اليمنية الرافدة.

الاستمرارية والحداثة في المدينة اليمنية التاريخية:

يذكر آدم ميتز في كتابه (الحضارة الإسلامية) في القرن الرابع الهجري أربعة أنواع من المدن في الحضارة الإسلامية: مدن على الطرز اليوناني في صورته

الشرقية والمعروف في حوض البحر الأبيض المتوسط، والمدن التي كانت تُشيد على الطراز المعروف في شرق السلطة الإسلامية كالمدن الايرانية، ثم المدن التي على طراز اليمن مثل مدينة صنعاء، ومن هذا الطراز أيضاً مكة والفسطاط، وفي رأيه ان المدن العربية تختص بتقارب المباني وارتفاع الدور، ومثال ذلك انه كان بالفسطاط (وهي على طراز المدينة اليمنية) دور من طبقات كثيرة تبلغ الثمان، حتى كأنها المنائر، وأسفل الدور غير مسكون، وربما سكن الدار المائتان من الناس.[١٢]

وضمن دراسة بعنوان الحداثة والتراث. تأثير التنمية في العمارة والتخطيط العمراني، أصدرتها جائزة الآغا خان للعمارة حصاد الندوة بهذا الخصوص عقدت في صنعاء عام ١٩٨٣ م ورد عن طراز اليمن المعماري ما يلي[١٣]: النمط العمودي هو الطراز الشائع للعمارة في المدن والأرياف اليمنية على حد سواء، فالأبنية متعددة الطوابق ويقطنها عدد من العائلات.. ويتبع الاستيطان في المدن اليمنية النموذج التقليدي للمدن الإسلامية نفسه، نسيج كثيف متقارب من الأسواق والخانات والمساجد والدكاكين والسمسرات والبيوت السكنية.. ومعظم المدن والبلدان اليمنية محصنة، وفي صنعاء تتوازن المناطق السكنية العالية الكثافة مع المناطق الفضاء المزروعة ضمن أسوار المدينة. فالأبنية الكثيفة المتقاربة يتراوح ارتفاعها بين خمسة وتسعة طوابق تبرز الشوارع الضيّقة التي تحيط بها من الجانبين وواجهات ارتفاعها ٢٠ إلى ٥٠ م.

وتتكون الأقسام السفلية من جدران الأبنية من عماد من الحجر، بعدد قليل من الفتحات، ومطلية بالجير الأبيض لتصد حدة الشمس، ونوافذ مؤطرة بكسوة الجص التزيينية، والسطوح مستوية وممنعة ضد تسرب الماء تمنيعاً جيداً. وتطل واجهات المباني الخلفية على حدائق عامة وبساتين «مقاشم» وغالباً ما تكون ملحقة بأحد المساجد، وهي أكثر المدن على قدرها بيوت عبادة..[١٤] وتكثر فيه

(١٢) الحضارة الإسلامية، ج ٢ ص (٢٧٣).
(١٣) الجمهورية العربية اليمنية، التطور الاقتصادي والمعماري، ص ٣٤.
(١٤) الإكليل للهمداني، ج ٨ ص ٤٣.

الآبار فيكون أقل منزل فيه بئر واثنتان وبستان، وبؤر الكنيف فيها طولٌ.[١٥] وتمتد مواد البناء ومزيجها المميز في الأرياف اليمنية إلى المناطق الحضرية: الطين والآجر في القسم الجنوبي من النجد الشرقي، الطين والآجر والحجر في الشمال. وبيوت صنعاء الطينية تلائم تقلب المناخ على أفضل وجه[١٦] ويبرّد الرجل من قص «الجص» بيته أو عليته أو خلوته.. فتصير حيطان بيته كأنها الفضة البيضاء..

ويخصص البيت بأيسر مؤونة وأخف نفقة[١٧].. وفي تعز تتطلب الأبنية نصيباً أكثر من الصيانة والتمنيع ضد المياه، لتقاوم فترة الأمطار الموسمية التي تدوم أطول ويفرض مناخ الحديدة الحار الرطب وجود مساحات خارجية مظللة وفسحات داخلية بارزة.. ويمكن تحقيق ذلك بواسطة البناء بالطين والغضار والعشب..[١٨]

إن مشكلة الإسكان الحضري ظاهرة جديدة بالنسبة لليمن فقد أدى الضغط على الأراضي الحضرية إلى ارتياد الاستيطان في الأراضي بدون ملكية شرعية للمواطنين أحياناً، وأدى ازدياد الطلب في أحيان أخرى إلى رفع الأسعار ودفع بعض محدودي الدخل إلى سكن المناطق الخارجية التي قد لا تتوافر فيها الخدمات كما في السابق والتي تقع عادة في خارج نطاق سوق الأراضي، وهو ما تعاني منه الدول العربية غالباً، ولذلك تختلف أحجام وطرق بناء المساكن في المناطق الجديدة بين مدينة وأخرى تبعاً لتوافر مواد البناء[١٩]، وبسبب تلك الضغوط فان تلك الأبنية الحديثة المرتجلة قد جلبت نماذج وتقنية معمارية تختلف اختلافاً كبيراً عن الأنماط والوسائل والمواد التقليدية.. كما ان التطور الاقتصادي والزحف العمراني في غالب الدول العربية الإسلامية بما فيها اليمن جعل استخدام تقنية البناء الحديثة أمراً لا مفر منه، وانتقال السكان وتفكك بعض

(١٥) م. ن. ص ٤٣.
(١٦) ندوة الآغاخان، ص ٣٥.
(١٧) تاريخ صنعاء للرازي، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.
(١٨) ندوة الآغاخان، ص ٣٥.
(١٩) م. ن. ص ٤٣.

النماذج الاجتماعية للعائلة يؤثر تأثيراً سلبياً على تلاحم المجاورات السكنية.

لقد أصبحت المدينة الحديثة في البلاد العربية وكأنها هجينة ضعيفة الشخصية لا هي عربية ولا غربية نتيجة لقصور المهندس المحلي ثم لتغلب التأثير الأجنبي على حساب الطابع التراثي.. أليس من العيب أن تورث الأجيال القادمة مدناً ليس لها طابع محلي وهوية ثقافية متميزة، نتيجة لقصور المهندسين الملهمين في مجتمعاتنا العربية؟. ان المباني الحديثة والشوارع الرئيسة في المدن تنشأ بأساليب قد لا تختلف عن مثيلاتها في البلاد الغربية، وإذا كان القصور في العمارة واضحاً فهو في مجال التخطيط الحضري أوضح، وذلك أيضاً نتيجة طبيعية لافتقار البلديات إلى مهندسي تخطيط المدن (فالموجود منهم في الوقت الحاضر قليل جداً) وإلى كون تخطيط المدن كما هو معلوم في الوقت الحاضر حقلاً متسعاً وشاسعاً، يشمل كثيراً من النواحي العلمية والفنية، ويستقطب إليه كثيراً من المعارف الحديثة المعقدة.[٢٠]

فالتخطيط اليوم لا يقتصر على إقامة المنشآت الضخمة وتجميل المدينة وتوسيع بعض الشوارع التي تترك أثراً في النفس فحسب، بل يهدف أيضاً إلى إنشاء بيئة أصيلة وسليمة ونظيفة وهادئة. ان المعاصرة رغم جودة معطياتها ينبغي ألاّ تتخلى عن القيمة التراثية الخاصة بها، وذلك لأنها إن نزعت إلى التخلي عن قيمها التراثية على حساب المغريات الشكلية الجديدة، فإن الثمن سيكون باهظاً، وإن المحاولة الجديدة لا ريب انها في جميع الأحوال ستكون قاصرة بل دون مستوى التفوق المطلوب.[٢١]

ولهذا فإن الحفاظ على طابع المدينة التقليدي وتخطيطها بما يتناسب وروح القديم أصبح أمراً ملحاً. ان الحاضر يملي شروطه والحداثة أساس حياتنا العربية المعاصرة، على ان تعزيز الذاتية الثقافية المحلية والارتباط الوثيق بالتراث العربي الإسلامي يقتضيان توازناً واعياً لدى تخطيط المدينة الحديثة بحيث يستلهم هدْي

(٢٠) انظر كتاب تلوث البيئة وتخطيط المدن، تأليف د. حيدر عبدالرزاق كمونة، بغداد (١٩٨١).
(٢١) أنظر المصدر نفسه، مقال عن البيئة العربية والتخطيط العمراني بين الأصالة والحداثة، ص ٨.

الماضي ويراعي حاجة العصر، توازن بين الحداثة ومعطيات التراث، بين روح الأصالة وواقع المعاصرة، وبين حب الاتّباع وفضول الإبداع.

وربما كان من المفيد أن نختتم هذه الدراسة بتوصية وردت ضمن التقرير النهائي للمؤتمر التاسع للآثار في البلاد العربية والذي انعقد في صنعاء بين ٢٦ - ٢٢ فبراير / شباط ١٩٨٠ م، وقد جاء فيها ما يلي:(٢٢)

«وإذا كنا نتحدث عن صيانة المدن العربية الحديثة المتنكرة، التي أصابها التنميط العالمي التكنولوجي وأصبحت غابات من الاسمنت المسلح، مما باعد بينها وبين الفن، مع المحافظة على المرتفعات الحديثة، وان ذلك يتطلب جهداً يبدأ من التعليم الهندسي العربي، في سياق قومية واعية بالذات الحضارية العربية، تلتزم بها الحكومات في تأكيد الهوية وتحقيق الذاتية».

وإذا كانت ثورة سبتمبر / أيلول المجيدة قد نفضت غبار الماضي وقتر التخلف عن مدننا التاريخية، فانها في الوقت نفسه ومنذ ما يقارب ربع قرن من الزمان قد مهدت سبل تطور هذه المدن بما يتوافق وتراث الماضي العريق، ولا أدل على ذلك من الجهود الطيبة التي تبذل حالياً لصيانة عدد من المساجد التاريخية ولتخطيط التوسع في عدد من المدن الرئيسية والثانوية تخطيطاً سليماً، وأبرز من ذلك كله الجهود التي تبذل حالياً لصيانة المدينة القديمة في صنعاء وحماية تراثها الثقافي والمعماري ضمن خطة سليمة مدروسة وبالتعاون الوثيق مع سكان المدينة وجهات الاختصاص، والاستفادة من نتائج حملتين، إحداهما محلية والأخرى دولية تحشد الإمكانيات وتيسر سبل تحديث هذه المدينة بما يكفل استمرار الماضي وانطلاق الحاضر.

---

(٢٢) التقرير النهائي للندوة، ص ٢٤.

ويراجع البحث الجيد الذي نشره المهندس العراقي رفعة الجادرجي بعنوان (التراث ضرورة عند تطوير المعمار العربي)، مجلة المستقبل العربي ٣ / ١٩٨١ ص ٢٠ - ٢٩.